العرب

أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977

أسسها: أحمد الصالحين الهوني

الثلاثاء 2026/09/15 - 03 ربيع الثاني 1448

السنة 49 العدد 13914

Tuesday 15/09/2026

49th Year, Issue 13914

www.alarab.co.uk

الحوثيون يعيدون ترتيب العلاقة السعودية الإماراتية

خطر باب المندب يدفع الرياض وأبوظبي إلى استعادة التنسيق فيما تتسع كلفة الحرب على أمن الملاحة والنفط

الرياض - لم يكن التقدم الحوثي على الساحل الغربي لليمن مجرد تحول جديد في خريطة الحرب اليمنية، بل بدأ يفرض إعادة ترتيب للأولويات الخليجية، وفي مقدمتها العلاقة بين السعودية والإمارات. فسيطرة الحوثيين على المخا واقترابهم من باب المندب، وصولاً إلى جزيرة ميون، وضعت أمن الملاحة والنفط في قلب الحسابات السعودية والإماراتية، وأعادت إلى الواجهة سؤال التنسيق بين دولتين تباعدت مواقفهما خلال السنوات الأخيرة حول إدارة الملف اليمني.

وفي مؤشر على محاولة إعادة تنشيط التنسيق بين الرياض وأبوظبي، تلقى وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بن فرحان اتصالاً هاتفياً من نظيره الإماراتي الشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان، بحثا خلاله التطورات المتسارعة في المنطقة والجهود المبذولة لاحتواء التصعيد، مع التأكيد على أهمية توحيد المواقف وتعزيز التشاور ودعم العمل الخليجي المشترك بما يحفظ أمن المنطقة ومقدراتها.

ويأتي الاتصال في وقت تتعرض فيه السعودية لاستهدافات متزامنة على أكثر من مسار. فإلى جانب تهديد الحوثيين للممرات البحرية والمنشآت النفطية، تعرض خط أنابيب الشرق والغرب لهجوم بطائرات مسيرة انطلقت من الأراضي العراقية، ما دفع الرياض إلى وقف تشغيل الخط مؤقتاً، في تطور زاد حساسية الوضع الأمني حول طرق تصدير النفط السعودية.

> الخلاف حول مستقبل الجنوب يمكن تأجيله أو إدارته سياسياً، لكن إغلاق باب المندب يرفع كلفة الخلاف على الجميع

في المقابل، لا تستطيع الإمارات التعامل مع السيطرة الحوثية على باب المندب باعتبارها مشكلة سعودية فقط. فأبوظبي بنت جانباً مهماً من نفوذها الإقليمي خلال السنوات الماضية على الموانئ وخطوط الملاحة والجزر والممرات البحرية، ولذلك فإن تحول الساحل اليمني إلى مجال نفوذ حوثي يضع المصالح الإماراتية في البحر الأحمر وخليج عدن أمام تحد مباشر.

قد يكون هذا هو العامل الذي يدفع العلاقة السعودية الإماراتية إلى الخروج مؤقتاً من منطق التنافس إلى منطق المصالح المشتركة. فقد أظهرت السنوات الأخيرة أن البلدين لا ينظران بالطريقة نفسها إلى مستقبل اليمن. الرياض تميل إلى الحفاظ على يمن موحد وسلطة مركزية قادرة على حماية حدودها، بينما دعمت أبوظبي قوى جنوبية محلية ذات أجندات مختلفة، ما جعل الساحة اليمنية أحد أبرز ميادين التباين بينهما. وتؤكد دراسات حديثة أن الخلاف حول اليمن تحول خلال 2025 و2026 من منافسة مُدارة إلى خلاف أكثر وضوحاً.

اتصال سعودي إماراتي لتوحيد المواقف

لكن السيطرة الحوثية على الساحل الغربي تخلق معادلة مختلفة. فالمشكلة لم تعد تتعلق فقط بمن يملك النفوذ داخل الجنوب اليمني، وإنما بمن يملك القدرة على التأثير في واحد من أهم الممرات البحرية في المنطقة. ومع اضطراب مضيق هرمز في الوقت نفسه، تصبح المخاطر على طرق الطاقة والتجارة أكثر ترابطاً، وتصبح أي ثغرة في باب المندب مشكلة خليجية مشتركة.

وتشير التطورات الإقليمية إلى أن دول الخليج باتت أكثر ميلاً إلى البحث عن ترتيبات لتخفيف المخاطر بدلاً من الاعتماد الكامل على المظلة الأميركية. وتقول رويترز إن التقدم الحوثي على الساحل اليمني دفع دول الخليج إلى إعادة تقييم حساباتها، بالتزامن مع اتجاهها إلى الحوار مع إيران بشأن أمن الملاحة.

في هذا السياق، يصبح أي اتصال سعودي إماراتي أكثر أهمية من مجرد تنسيق دبلوماسي روتيني. فالمطلوب من الرياض وأبوظبي في المرحلة المقبلة ليس بالضرورة العودة إلى الصيغة التي حكمت تدخلهما في اليمن منذ 2015، وإنما منع تحول الخلافات السابقة إلى عامل يضعف القدرة على مواجهة خطر جديد أكثر مباشرة.

وقد يكون أمن باب المندب نقطة البداية. فالسعودية تحتاج إلى ضمان استمرار طرق تصدير النفط، والإمارات معنية باستقرار الموانئ وخطوط التجارة البحرية، بينما يحتاج الطرفان إلى منع الحوثيين من تحويل الساحل الغربي إلى ورقة ضغط دائمة على حركة السفن.

وهنا يمكن أن تتقاطع المصالح حتى مع اختلاف الحسابات بشأن شكل الدولة اليمنية. فالخلاف حول مستقبل الجنوب أو توزيع النفوذ بين القوى اليمنية يمكن تأجيله أو إدارته سياسياً، لكن إغلاق باب المندب أو تحويله إلى منطقة تهديد للملاحة يرفع كلفة الخلاف على الجميع.

هل استخدمت السعودية صواريخ باليستية صينية

مأرب - أفادت تقارير دفاعية مفتوحة المصدر الاثنين، باكتشاف حطام يُعتقد أنه يعود إلى مرحلة دافعة (بوستر) لصاروخ باليستي قصير المدى صيني الصنع من طراز دي إف15-إيه في مديرية رغوان بمحافظة مأرب شمالي اليمن.

وانتشرت صور الحطام عبر حسابات مراقبة إقليمية وحسابات استخبارات مفتوحة المصدر (أوإسآيينتي)، حيث حدد محللون مثل "مينش أوسنت" و"أوسنت وورفير" الخصائص الهيكلية والزعنفات الديناميكية الهوائية والغلاف الخارجي للحطام كدليل على انتمائه إلى هذا الطراز.

ويأتي هذا الاكتشاف في خضم تصعيد حاد في القتال حول مأرب بين قوات الحوثيين والقوات الموالية للحكومة اليمنية المعترف بها دولياً. ومنذ أوائل سبتمبر الجاري، تبادلت الأطراف الضربات في عدة محافظات، بينما تواصل السعودية تنفيذ غارات جوية دعماً للقوات الحكومية في المنطقة.

وكتب المحلل مينش أوسنت على منصة إكس أن "السعودية أطلقت صواريخ باليستية صينية من طراز دي إف15-إيه على اليمن الليلة الماضية، ربما للمرة الأولى"، بينما وصف حساب أوسنت وورفير الحطام بأنه يعود إلى "صاروخ دي إف15-إيه (دونغ فنغ-15إيه) صيني الصنع تشغله السعودية" سقط في رغوان.

ويُعد صاروخ دي إف15-إيه صاروخاً باليستياً قصير المدى يعمل بالوقود الصلب وذا مرحلة واحدة، ويُقدر مداه بنحو 600 كيلومتر (حوالي 370 ميلاً)، مع بعض المراجع التقنية التي ترفعه إلى ما بين 600 و900 كيلومتر. ويحمل رأساً حربياً تقليدياً يتراوح وزنه بين 500 و750 كيلوغراماً. ويُطلق من منصة متنقلة على الطرق، مما يمنحه قدرة عالية على المناورة والانتقال السريع بعد الإطلاق.

> إذا ثبت الاستخدام، فسيكون أول تأكيد علني على تشغيل الرياض لهذا الطراز القصير المدى، مما يوسع خياراتها الردعية

ويُعرف هذا الطراز ضمن عائلة دونغ فنغ-15 الصينية، التي دخلت الخدمة في التسعينيات وتطورت عبر نسخ محسنة.

وأثار التحديد اهتماماً كبيراً لأن السعودية تمتلك سجلاً موثقاً في اقتناء صواريخ باليستية صينية، رغم أن لا الرياض ولا بكين أكدتا علناً تشغيل المملكة لطراز دي إف15-إيه تحديداً. ففي أواخر الثمانينيات، اشترت السعودية نحو 60 صاروخاً من طراز دي إف3-إيه من الصين. وفي حوالي عام 2007، حصلت على صواريخ دي إف-21 متوسطة المدى، وهو ما أكدته لاحقاً سجلات حكومية أميركية. كما أشارت معلومات عامة إلى مساعدة صينية في بناء بنية تحتية سعودية لإنتاج الصواريخ الباليستية. ومع ذلك، لم يُؤكد علناً امتلاك السعودية لأي نسخة قصيرة المدى من عائلة دي إف-15.

أما الحوثيون، فليسوا معروفين علناً بتشغيل صواريخ دي إف15-إيه. وتعتمد ترساناتهم الصاروخية بشكل أساسي على أنظمة مستمدة من تصاميم سوفياتية قديمة وتقنيات مرتبطة بإيران.

ولم يُقدم حتى الآن أي دليل يربط الحطام المكتشف في مأرب بصاروخ دي إف15-إيه تشغله الجماعة.

وجعل هذا التباين المحللين يميلون إلى فرضية الإطلاق من الأراضي السعودية، استناداً إلى موقع الحطام والمسار المفترض، رغم عدم وجود تأكيد رسمي.

وظهرت فرضية بديلة في بعض التحليلات تشير إلى احتمال ارتباط باكستاني. فالعلاقات العسكرية بين السعودية وباكستان عميقة وطويلة الأمد، وشهدت توقيع اتفاقية دفاع متبادل استراتيجية في سبتمبر 2025، تنص على أن أي هجوم على أحدهما يُعامل كهجوم على الآخر.

وقد سبق أن تمركزت قوات باكستانية في المملكة لأغراض التدريب على مدى عقود. غير أن باكستان لا تشغل علناً صواريخ دي إف-15إيه، بل تعتمد على عائلات غزنوي وشاهين. ولم يُقدم أي دليل مادي يربط قوات أو معدات باكستانية بالحطام في رغوان.

تقرأون في العدد

- كيف تتنبأ الاستخبارات الخوارزمية بالمستقبل؟ ص2
- دروس الدبلوماسية في زمن الأزمات ص3
- نجيب محفوظ شاعر الدنيا الحديثة وعناد الثيران ص4

كلمة العرب

بقلم: محمد الصالحين الهوني

رئيس التحرير

عُمان: نافذة أمل في زمن الانسداد

يكفي النظر إلى خريطة الخليج لفهم أن مضيق هرمز لم يعد مجرد ممر بحري تنتقل عبره ناقلات النفط والغاز، وإنما أصبح نقطة تختبر عندها المنطقة والعالم قدرة السياسة على منع الجغرافيا من التحول إلى سلاح.

في الساعات الأخيرة، ازدادت الصورة تعقيداً. الاجتماع الذي كان مقرراً في سلطنة عُمان بين إيران وعدد من دول الخليج لبحث ترتيبات الملاحة في مضيق هرمز أُرجئ، وقال وزير الخارجية العُماني بدر البوسعيدي إن التأجيل جاء "حرصاً على التوافق"، من دون تحديد موعد جديد. وفي الوقت نفسه، استمرت تداعيات الهجوم الذي أدى إلى إغلاق خط أنابيب شرق-غرب السعودي، فيما تعرضت سفن لهجمات جديدة في الخليج، واتسع الضغط على مسارات الطاقة مع تصاعد التهديدات في باب المندب.

للوهلة الأولى، قد يبدو هذا المشهد كأنه انتكاسة لفكرة الوساطة العُمانية. اجتماع مؤجل، خلافات مستمرة، وأسواق نفط تستجيب بقلق للتطورات الأمنية. لكن القراءة الأعمق قد تقود إلى نتيجة مختلفة تماماً: حين يتعثر الحوار في أكثر اللحظات توتراً، تصبح الحاجة إليه أكبر، لا أقل.

وهنا تحديداً تكتسب سلطنة عُمان أهمية تتجاوز حدود الوساطة التقليدية.

فمسقط لا تقدم نفسها باعتبارها قوة تريد إعادة تشكيل ميزان القوى، وإنما بوصفها دولة راكمت عبر عقود قدرة نادرة على إبقاء خطوط الاتصال مفتوحة بين أطراف يصعب عليها أحياناً أن تتحدث مباشرة مع بعضها البعض. وهذه الوظيفة تبدو اليوم أكثر أهمية من أي وقت مضى، لأن المنطقة لم تعد تواجه أزمة واحدة يمكن احتواؤها في مكان واحد، وإنما شبكة متداخلة من الأزمات تمتد من هرمز إلى باب المندب، ومن خطوط الأنابيب إلى الموانئ، ومن أمن السفن إلى أسعار الطاقة والأسواق العالمية.

لقد كان الاجتماع العُماني المنتظر مهماً ليس لأنه كان سيقدم حلاً نهائياً لأزمة هرمز، وإنما لأنه كان يمكن أن يمثل أول مساحة جماعية للبحث في ترتيبات عملية للملاحة بين إيران ودول الخليج. وكانت طهران قد تحدثت عن تفاهم مع مسقط بشأن مسار بحري جديد، لكن وزير الخارجية الإيراني عباس عراقجي شدد في الوقت نفسه على أن هذا التفاهم لا يعني إعادة فتح مضيق هرمز بصورة كاملة، وأن النقاش يتعلق بترتيبات محددة للملاحة.

وهذه النقطة مهمة للغاية. فالدبلوماسية الجادة لا تبدأ عادة من التسويات الكبرى، وإنما من الملفات التي يمكن الاتفاق عليها ولو جزئياً. وإذا كان فتح المضيق بصورة كاملة مسألة شديدة التعقيد، فإن ضمان ممرات آمنة للسفن، وتنظيم الحركة البحرية، ومنع الاحتكاك، يمكن أن تكون خطوات أولى أكثر واقعية.

لكن حتى هذه الخطوات الصغيرة أصبحت اليوم صعبة.

وهذا هو سبب أهمية عُمان. فمسقط لا تحتاج إلى أن تقنع الأطراف بأن خلافاتها غير موجودة، بل تحتاج إلى أن تساعدها على منع هذه الخلافات من ابتلاع المصالح المشتركة. إيران لديها حساباتها السياسية والأمنية، ودول الخليج لديها مخاوفها المشروعة، والولايات المتحدة لديها حساباتها الاستراتيجية، والأسواق العالمية لديها حساسيتها تجاه الطاقة. وليس مطلوباً من الوسيط أن يلغي هذه الحسابات.

البحرين، على سبيل المثال، اتخذت موقفاً أكثر تحفظاً، ورفضت المشاركة في الاجتماع الجماعي مع إيران قبل استعادة العلاقات الدبلوماسية، في ظل تأكيدها على قضايا السيادة ووقف الاعتداءات واحترام القانون الدولي. وهذه المواقف لا يمكن تجاهلها في أي مسار تفاوضي جاد. لكنها في الوقت نفسه تكشف مدى الحاجة إلى وسيط يستطيع أن يحول المخاوف الأمنية إلى ترتيبات قابلة للنقاش، بدلاً من أن تبقى الخلافات أسيرة البيانات والمواقف المتقابلة.

وهنا تصبح عُمان أكثر من مجرد مستضيف للاجتماعات.

إنها مساحة اختبار لفكرة أن الأمن يمكن أن يُبنى بالتدرج.

فالاستقرار لا يحتاج دائماً إلى اتفاق شامل منذ اليوم الأول. قد يبدأ بقاعدة بسيطة للسلوك في البحر، أو قناة اتصال مباشرة بين الأطراف، أو تفاهم حول مسار محدد، أو آلية للتعامل مع الحوادث البحرية. وقد تبدو هذه الإجراءات متواضعة مقارنة بحجم الأزمة، لكنها في لحظات التوتر الكبرى قد تكون الفارق بين حادث يمكن احتواؤه وحادث يتحول إلى حرب.

ولعل أخطر ما تكشفه التطورات الأخيرة أن المشكلة لم تعد محصورة في هرمز أصلاً.

فالهجمات التي طالت خط أنابيب شرق-غرب السعودي، الذي يمثل أحد أهم المسارات البديلة لنقل النفط بعيداً عن هرمز، أظهرت أن إغلاق المضيق ليس وحده مصدر الخطر. فقد اضطرت السعودية إلى إغلاق الخط احترازياً بعد تعرضه لهجمات في منطقتي الرياض والمدينة، في وقت كان فيه هذا المسار يحظى بأهمية استثنائية بسبب قدرته على نقل النفط إلى ساحل البحر الأحمر بعيداً عن المضيق.

ثم جاء التصعيد في باب المندب ليضيف طبقة أخرى من المخاطر. وهذا ما دفع أسعار النفط إلى الارتفاع بأكثر من ثلاثة في المئة في التعاملات الأخيرة، مع تجاوز خام برنت مستوى 107 دولارات للبرميل.

> الأزمات مترابطة من هرمز إلى باب المندب وقناة السويس ما يجعل الحلول السياسية ضرورة ويبرز الدور العُماني كنافذة أمل في زمن الانسداد

وهنا تتضح أهمية الدور العُماني بصورة أكبر.

فإذا كانت الأزمات مترابطة جغرافياً واقتصادياً، فإن الحلول يجب أن تكون مترابطة أيضاً. لا يمكن أن نتحدث عن أمن هرمز بمعزل عن أمن باب المندب، ولا عن حرية الملاحة من دون النظر إلى أمن خطوط الطاقة والموانئ، ولا عن استقرار أسعار النفط من دون التفكير في كيفية منع تحول البنية التحتية للطاقة إلى أهداف في حرب إقليمية مفتوحة.

لقد أصبحت المنطقة أمام معادلة خطيرة: إذا أُغلقت الممرات البحرية، استُهدفت البدائل البرية؛ وإذا اتسعت الحرب في الخليج، امتدت آثارها إلى البحر الأحمر؛ وإذا تعطلت الطاقة، انتقلت الأزمة بسرعة إلى الاقتصاد العالمي.

وهذه المعادلة تجعل البحث عن مخرج سياسي أكثر إلحاحاً.

من هنا لا ينبغي النظر إلى تأجيل اجتماع مسقط باعتباره فشلاً. التأجيل قد يكون، في بعض الحالات، جزءاً من العمل الدبلوماسي نفسه. فمسقط قالت بوضوح إن الهدف هو الحفاظ على التوافق، فيما أفادت إيران بأن التأجيل جاء بناء على طلب بعض دول المنطقة وبقرار مشترك مع عُمان، على أن يجري التنسيق لتحديد موعد مناسب لاحقاً.

وهذا التفصيل مهم. فالمسار لم يُعلن انتهاؤه، وإنما تعثر في لحظة لم تكن فيها الشروط السياسية ناضجة بما يكفي لعقد اجتماع قد ينتهي إلى نتيجة هشة أو إلى مواجهة دبلوماسية جديدة.

ليبيا 1 دينار - السعودية 2 ريال - مصر 3 جنيه مصري - موريتانيا 120 أوقية - تونس 900 مليم - المغرب 3 دراهم - الجزائر 7 دينارات - البحرين 200 فلس - اليمن 50 ريالا - الكويت 150 فلسا - الإمارات 2 درهم - عمان 200 بيزا - قطر 2 ريال - العراق 2000 دينار - الأردن 500 فلس - سوريا 150 ليرة - السودان 50 دينارا

AUSTRIA 2 € - BELGIUM 2 € - CYPRUS 2 € - FRANCE 2 € - GERMANY 2 € - GREECE 2 € - ITALY 2 € - TURKEY 2.350.000 TL (YTL2.35) - MALTA 2 € - NETHERLANDS 2 € - SPAIN 2 € - SWEDEN 13 KR - SWITZERLAND 3SF - USA 1 $ - UK 1 £

العرب
الثلاثاء 2026/09/15
السنة 49 العدد 13914

مهندسو الأقدار الرقمية: كيف تتنبأ الاستخبارات الخوارزمية بالمستقبل؟

سجناء «كهف أفلاطون الرقمي»: هندسة الوعي العربي وتوجيه الشعوب

في زمن تتحول فيه الخوارزميات إلى أداة لإدارة المعرفة والاقتصاد والأمن وتوجيه السلوك، لم يعد الصراع على المستقبل يدور فقط حول امتلاك التكنولوجيا، بل حول من يحدد مسارات استخدامها. ويجد العالم العربي نفسه أمام معادلة شديدة التعقيد، بين فرص الذكاء الاصطناعي ومخاطر الارتهان الرقمي، وما يفرضه ذلك من أسئلة حول السيادة والخصوصية ومستقبل الوعي الإنساني.

د. حسن مصدق
أستاذ في جامعة فانسين باريس 8

على عمق مئات الأمتار تحت الأرض، تُدار اليوم حرب من نوع آخر بلا رصاص أو حديد، بل عبر همس الخوارزميات وصمت الحواسيب الفائقة. في هذه المخابئ السرية، تتغذى أنظمة الذكاء الاصطناعي على بيانات مليار إنسان لتخلق مرآة افتراضية مرعبة للكوكب، أو ما يُعرف بـ«التوأم الرقمي». نظام لا يكتفي بمحاكاة الأرض في تفاصيلها، بل يسعى لاستباق خطوتك التالية وقراءة أزمات الغد قبل أن تشتعل شرارتها الأولى. فمن يمتلك حقاً مفاتيح هذا القدر الرقمي؟

> تمتلك خوارزميات الذكاء الاصطناعي خزانات معرفية تتيح لها تجاوز أفق رصد الحقائق إلى استشراف المستقبل السياسي

تستند الركائز الخفية لهذا المشروع إلى معمارية رقمية شديدة التعقيد، تهدف إلى ابتلاع تفاصيل الوجود المادي وإعادة خلقه كاملاً في فضاء افتراضي. لا تتغذى هذه البنية التحتية على أدوات الرصد المألوفة فحسب، بل تعتمد على شريان متصل لا ينقطع من البيانات الضخمة، حيث يشتبك رصد إشارات الهواتف المحمولة وتتبع المواقع ومنصات التواصل الاجتماعي بدقة متناهية، فضلاً عن مسوحات الأقمار الاصطناعية، وتدفق حركة الأموال عبر الشرايين المالية العالمية، ونبض شبكات الطاقة، والتغيرات المناخية.

تُصهر هذه المليارات من نقاط البيانات في أتون خوارزمي لبناء مجرة افتراضية تعكس كل حركة ونبضة وتفاعل بشري في الوقت الفعلي. وهنا تتجلى أعتى العقبات التقنية في تاريخ الحوسبة، إذ يصطدم المشروع بطوفان من البيانات اللحظية يفرض التماس قدرات فائقة من الحوسبة الكمية والتخزين الفائق، مُوَلِّدةً معضلات هندسية غير مسبوقة تزاوج العالم الواقعي بمرآته الرقمية دون انقطاع.

ومن هنا، إن كانت البنية التحتية للتوأم الرقمي هي «الجسد الجائع» الذي يلتهم تفاصيل الكوكب، فإن نماذج الذكاء الاصطناعي التنبؤية هي «العقل المدبر» الذي يبعث فيه الروح، ممتلكاً القدرة على هتك حجب الغد واستباق التحولات السياسية والاجتماعية قبل أن تنبت جذورها.

تمتلك خوارزميات الذكاء الاصطناعي خزانات معرفية ضخمة تتيح لها تجاوز أفق رصد الحقائق إلى استشراف المستقبل السياسي والاجتماعي. ولا تكمن قيمة هذه النماذج في تتبع الأسرار، بل في قدرتها على التنبؤ بالأزمات عبر معالجة بيانات متعددة المصادر، مما يمكّن الجهات المستخدمة من كشف الأهداف وتحديد الأولويات بمهارة فائقة، بحيث تهجر هذه التقنيات أساليب الرقابة الكلاسيكية المعنية بوقائع الأمس، لتقرأ الغد باعتماد تقنيات التعلم العميق والمنظومات المعقدة.

فباستخدام شبكات عصبية تتغذى على طوفان بيانات التوأم الرقمي، تتحول المنظومة إلى مجسات رصد دقيقة ترصد «الاهتزازات الأولى» للمجتمعات. وبدلاً من الاكتفاء بتحليل الثورات بعد وقوعها، تلتقط هذه النماذج المؤشرات الدقيقة؛ مثل الاضطرابات الخفية في سلاسل الإمداد، والتغير الحاد في الخطاب الرقمي، والحركات غير المعهودة، أو الارتفاع الصامت في مؤشرات القلق الجمعي المستمدة من أنماط الشراء وحركة الأموال، لتتوقع الانتفاضات قبل أسابيع من تشكلها الميداني، وكأنها ترصد زلزالاً في مرحلة الخواطر الأولى.

بالإضافة إلى ذلك، تتجاوز ذروة هذا النموذج أفق «التنبؤ المجرد» لتصل إلى «التدخل الاستباقي»، إذ يتعدى الأمر ترقب الكارثة نحو إعادة هندسة التدفقات الرقمية والمعلوماتية بهدف توجيه سلوك الجماهير سراً، لتتحول المراقبة من عين مسجلة للواقع إلى يد فاعلة تحرك خيوط الأحداث على الأرض. ومن ثم يتبدى الفارق بين المقاربتين كالفارق بين الاعتماد على الخرائط الورقية الصماء ونظام ملاحة فضائي حي وفوري يتعامل مع السلوك البشري كـ«كائن حي ذي ديناميكيات غير خطية». وذلك لتنتهي المجتمعات إلى مجرد معادلات رياضية بالغة الدقة.

وهنا تكمن الخطورة، فمع التغذية الراجعة المستمرة، تتدرب الخوارزميات على تصحيح أخطائها ذاتياً، لترتقي توقعاتها إلى مستوى يلامس «اليقين الاستخباراتي». إنها تحاكي سيناريوهات الفعل وردود الفعل لكل الأطراف، مسقطةً عنصر الصدفة تماماً، ومانحةً صانع القرار الميزة الأعظم في تاريخ الصراعات: السيطرة على الناس، امتلاك الزمن، وتحييد المجهول.

شاشة يتفرج عليها الرقيب

فالمراقبة هنا لم تعد مجرد شاشة يتفرج عليها الرقيب، بل مِقوَداً يسوق به الجماهير.

هندسة التدفق المعلوماتي والتلاعب الصامت بالرأي العام

لا يقف شطط الطموحات الاستخباراتية عند حدود التنبؤ الخوارزمي، بل يمتد ليثب من مقاعد «الاستشراف» إلى صياغة الأقدار وتوجيه المآلات. ففي عالم تتداعى فيه الحدود الفاصلة بين الواقع والافتراض، تتحول خوارزميات التدفق المعلوماتي إلى منظومات تأثير وتوجيه ذهني عميق، تُسخّر لتحريك المجتمعات عن بُعد في صمت مطبق، ودون أن يدرك الفرد أنه ليس سوى ترس عابث في معمل استخباراتي مدجج.

تستند آليات هذا التلاعب الدقيق إلى ضخ محتوى رقمي ممنهج عبر المنصات؛ تُخنق فيه أفكار وتُغذى أخرى، وتُستزرع مخاوف وهمية أو تُطمس قضايا مصيرية. لا يُمارس هذا الغزو بقمع فظ أو سوط غليظ مرئي، بل بهندسة ناعمة ترسم خارطة وعي الشعوب، فتندفع الجماهير نحو خيارات مرسومة سلفاً، وهي تتقلب في وهم الحرية المطلقة.

وعبر التحكم المطلق بـ«صنبور المعرفة الكوني»، تملك هذه النماذج القدرة على وأد أحداث وهي في طور المخاض، أو حقن أزمات هامدة بجرعات باعثة لانفجارها في التوقيت الخادم للأجندة الاستراتيجية. وحين تفرز الخوارزميات نبوءة باحتمال تمرد أو حراك مقلق، تباشر الأجهزة بث حزم تشتيت تُفتت عضد الشارع أو تحرف بوصلة الغضب نحو معارك جانبية، ليذوب قبل أن يستوي ملح ثورة. وفي المقابل، إذا تقررت الإطاحة بنظام مناوئ أو النيل من جهة ما، انطلق سيل عارم من الأباطيل الموحية، ليتدافع الأفراد عفوياً نحوها، فيتحقق «التنبؤ» لأنه صُمم لكي يقع.

> يتجاوز التغول التقني حدود التجسس التقليدي بعدما اقتحمت خوارزميات الاستطلاع الأفكار، والأجساد، والبيانات العصبية

وتتجلى الذروة المظلمة لهذا التغول في تخليق «الواقع الموازي»، حيث يُسجن الوعي الجمعي في شرنقة رقمية لا يبصر منها الفرد سوى ظلال صاغتها الخوارزميات، ليغدو المواطن سجيناً في «كهف أفلاطون» رقمي، يعيش ويحلم ويتفاعل مع أطياف مصطنعة، عاجزاً عن التمييز بين الحقائق العضوية والصور المزيفة.

ولتجذير هذا الطرح في الواقع، تكفي الشواهد الناطقة ببدء هذا الكابوس، بدءاً ببرنامج «بريزم» الذي كشفه إدوارد سنودن كجنين أول للمراقبة الشاملة، مروراً بشراكات عمالقة التقنية مع الدوائر السيادية كـ«مشروع مايفن» العسكري و«منظومات بالانتير»، وصولاً إلى «كامبريدج أناليتيكا» التي أثبتت أعتى فجاجة خوارزمية في ترويض الرأي العام، فما بالك بتلك القدرات اليوم إن أُديرت بأموال سرية عبر أعتى المنظومات الاستخباراتية.

إن تشييد «التوأم الرقمي للأرض» ليس مجرد نزوة تقنية عابرة، بل هو ثمرة زواج مرعب بين قوة التجسس الرقمي واعتراض الاتصالات من جهة، وقوة المراقبة الفضائية ونظم الخرائط من جهة أخرى، حيث يلتقي التتبع الفوري لنشاطك على الإنترنت بالمراقبة الجغرافية المباشرة لموقعك على الأرض. وفي هذا الأتون الحاسوبي، تنصهر المليارات من أسرارنا وآثارنا الرقمية اليومية لتشكيل أدق منظومة تجسس في التاريخ، منظومة زلزلت مفهوم «الأمن القومي»، وحوّلت سيادة الدول إلى حديقة مستباحة، مُعلنةً الانتقال من مجرد انتظار المخاطر إلى التحكم المسبق بحياة البشرية.

ويُحاط هذا التحالف بسرية مطلقة ضمن ما يُعرف بـ«المشاريع السوداء»؛ وهي أقبية موازية خارجة عن الرقابة البرلمانية والقضائية والأخلاقية، تُدار في الخفاء لفرض رقابة شاملة على البشرية دون علمها أو إذنها. ورغم سطوة هذه المنظومة، فإنها تعاني تصدعاً في بنيانها، إذ ترتطم برامج الذكاء الاصطناعي بعشوائية السلوك البشري، وتتخبط في «الهلوسة الرقمية» وعجز النماذج الرياضية عن استيعاب اللامنطق الإنساني. والأدهى أن هذا التغول يصطدم بمقاومة تبدأ بالتشفير والشبكات اللامركزية، ولا تنتهي بصحوة التشريعات الحامية للخصوصية، ليمسي صراع الوجود اليوم معركة بين وعي بشري ينشد الانعتاق، وآلة صماء تسعى لتدجينه.

العالم العربي في عين العاصفة

يقف العالم العربي اليوم في أعتى بؤر هذا الكابوس التقني، إذ يُعد إحدى أخصب الساحات المستباحة لهذه الاختراقات المتسارعة، حيث تتجسد هذه المعمارية الكونية في واقعنا عبر تداعيات ملموسة تُهدد الحاضر والمستقبل:

● **تحويل المنطقة إلى «حقول تجارب استخباراتية»:** في ظل هشاشة المنظومات التشريعية والسيبرانية، تتحول شبكات الاتصالات والبيانات العربية إلى مسرح مكشوف للتجارب. فالاختراقات البرمجية التي تقودها أجهزة الاستخبارات الكبرى والشركات العابرة للحدود، عبر التقنيات الهجومية التي تُستورد إقليميًا، تجعل البيانات الشخصية لملايين المواطنين مباحة ومُدمجة في خوادم التجسس الكونية، تحت ساتر «مكافحة الإرهاب» و«استباق الأزمات».

● **هندسة الوعي الجمعي وصناعة «الأزمات التشاركية»:** على مدى العقدين الماضيين، شهدت العواصم العربية تحولات دراماتيكية لعبت فيها خوارزميات التوجيه دورًا محوريًا، كما كشفنا ووثّقنا في كتابنا وثائق ويكيليكس وأسرار الثورات العربية. إذ تُمارس «هندسة التدفق» اليوم بضراوة؛ فتُخنق حراكات شعبية في مهدها، وتُصب الزيوت على نيران الصراعات الطائفية والعرقية. وبمعية جيوش الحسابات المصنوعة خوارزميًا، يتم صوغ مزاج عام مُضلَّل يُحاصر المواطن العربي داخل «كهف رقمي» يوجه عواطفه وقناعاته دون أن يشعر.

● **مصادرة السيادة الرقمية والارتهان السياسي:** عندما تُدار شرايين البيانات الحيوية، من تدفقات مالية، وشبكات طاقة، واتصالات، عبر خوادم عملاقة تحت سيطرة شركات مرتبطة بالدوائر الاستخباراتية الغربية، تتبخر مقومات السيادة الوطنية. يصبح صانع القرار العربي تحت مقصلة ضغط ناعم غير مباشر؛ حيث يُواجه بـ«مؤشرات تنبؤية» صممتها الآلة لترسم له سيناريوهات الانهيار الحتمي إذا هو حاد عن المسار المخطط له.

● **خوارزميات «التشرذم وإدارة الاستنزاف»:** في بيئة متخمة بالشقاق كالشرق الأوسط، تعكف النماذج التنبؤية للذكاء الاصطناعي على محاكاة «ردود الفعل الطائفية والمجتمعية» بدقة شديدة. إن تحويل المجتمعات العربية إلى «متغيرات رياضية صماء» لا يستهدف سوى تفكيكها وتأبيد حالة الاستنزاف الداخلي، لضمان بقاء المنطقة في دوامة من «اللااستقرار المُسيطر عليه»، بما يضمن مصالح القوى المهيمنة.

● **«الاستعمار الرقمي» وتجريف العقول السيادية:** تتكرس التبعية الجيوسياسية عبر استنزاف العقول العربية الشابة في مجالات البرمجة والرياضيات والذكاء الاصطناعي لاستقطابها نحو المراكز الاستخباراتية والتقنية الكبرى، بالتوازي مع تصدير «أنظمة مغلقة» للمنطقة، مما يُحرم الدول العربية من بناء ذكاء اصطناعي سيادي مستقل، ويُبقي مقدراتها الرقمية مرتهنة لمطورين خارجيين.

● **تلغيم البنية التحتية واختراق سلاسل الإمداد:** تعتمد المنشآت العربية الحيوية، من موانئ، وشبكات كهرباء، ومحطات تحلية مياه، ومؤسسات مالية، على أنظمة تشغيل ومعدات ذكية مستوردة، مما يزرع فيها ثغرات وأبوابًا خلفية مخفية. تمنح هذه الثغرات القوى التكنولوجية القدرة على شلّ الشرايين الحيوية للبلاد وتعطيلها عن بُعد بضغطة زر، دون الحاجة لإطلاق طلقة رصاص واحدة.

● **السلاح الاجتماعي-الاقتصادي والضغط الهجين:** تُستغل النماذج التنبؤية في هندسة الأزمات المعيشية، عبر التلاعب الخوارزمي المؤتمت بأسعار السلع، وضخ شائعات مالية موجهة تضرب الثقة بالعملات الوطنية. ما يسبب أحيانًا أزمات تُنسب ظاهريًا إلى «سوء الإدارة المحلية»، بينما تشكل في عمقها نتاج استهداف هجين صُمم بعناية لإحداث اضطرابات شعبية مباغتة تُجبر الأنظمة على تقديم تنازلات سياسية ومصيرية.

● **الاغتراب النخبوي والتجريف الحضاري:** تُستغل خوارزميات التوصية والفقاعات الرقمية الموجهة بعناية لاستهداف النخب والطبقة المتوسطة، باعتبارها عصب التنوير والتغيير، لدفعها نحو الانفصال التدريجي عن الموروث العربي والإسلامي الجامع. وعبر إغراق هذه الفئات بنماذج وأفكار مستوردة لا تعكس قضايا الأغلبية ولا تعبّر عن مصالحها الحقيقية، تُخلق «طبقة معزولة إدراكيًا» تعيش اغترابًا فكريًا داخل وطنها، مما يضمن تفكيك اللحمة المجتمعية، وإحداث قطبية حادة بين نخبة تتبنى وعيًا وافدًا وجماهير متشبثة بهويتها الأصيلة.

وهكذا، لا يقف العالم العربي على هامش هذه المأساة، بل هو في قلب أعاصيرها، حيث يُشكل غياب الوعي السيبراني المتقدم وتواضع قوانين حماية الخصوصية تلك الثغرة القاتلة التي تجعل المواطن العربي والدولة على حد سواء أهدافًا مستباحة لهذه المعمارية الاستخباراتية الكونية.

المعضلات الأخلاقية ونهاية الخصوصية

يتجاوز هذا التغول التقني حدود التجسس التقليدي ليُعلن الانهيار الوشيك لمفهوم الخصوصية، بعدما اقتحمت خوارزميات الاستطلاع الأفكار، والأجساد، والبيانات العصبية قسرًا لتغذية هذا العقل الاصطناعي الكوني. صراعٌ لم يعد حكرًا على الغرب، بل استحال سباق تسلّح خوارزميًا عابرًا للأيديولوجيات يُهدد بتجريد الشعوب والدول النامية من استقلالها الحضاري.

> تستند آليات التلاعب إلى ضخ محتوى رقمي ممنهج عبر المنصات؛ تُخنق فيه أفكار وتُغذى أخرى، وتُطمس قضايا مصيرية

وأمام هذا المأزق، لم يعد مقبولًا للعالم العربي تجسيد دور «الضحية المنتحبة»؛ إذ أضحت «السيادة الرقمية» ضرورة وجودية تُبنى عبر امتلاك البنى التحتية المستقلة، وسن التشريعات الصارمة، وتوطين التشفير اللامركزي لقطع الطريق أمام استباحة المنطقة.

ختامًا، إن كانت الآلة قد نقلت الحروب من ميدان السلاح المادي إلى أقبية التحكم بالوعي الجمعي، فإنها أبدًا لن تكون قدرنا المحتوم. فالخوارزميات، على عظم سطوتها، تظل هيكلًا أصمَّ يفتقر إلى شرارة الروح وعفوية الإرادة الإنسانية. إن المستقبل ليس نتاج معادلة رياضية مغلقة، بل هو ساحة يملك الإنسان مفتاحها متى ما استردّ وعيه وحصّن سيادته الرقمية.

فالاستعباد الرقمي يبدأ حين تتخلى الشعوب عن حقها في السؤال، ويُكسر حين يعود العقل محرّكًا للرفض لا صدىً للآلة. ففي أعتى لحظات الهيمنة التقنية، يظل العقل البشري الحر هو الرقم العصيّ على الترويض، والقادر دومًا على كسر المرآة الرقمية وصناعة مصيره بيده.

مرآة افتراضية مرعبة للكوكب

العرب
الثلاثاء 2026/09/15
السنة 49 العدد 13914

العراق في قلب العاصفة...

محمد حسن الساعدي
كاتب عراقي

يقف العراق اليوم في قلب صراع إقليمي معقد تتداخل فيه المصالح الدولية والإقليمية، ويجد نفسه في موقع لا يمكن وصفه بالحياد المطلق ولا بالانحياز الكامل، بل هو موقع يتسم بالتوازن الحذر ومحاولة صياغة دور مستقل يعكس تطلعاته الوطنية. إذ إن هذا الموقع ليس وليد اللحظة، بل هو نتاج تاريخ طويل من التداخل بين العراق والجوار، حيث شكلت جغرافيته ومكانته الحضارية والسياسية نقطة جذب وصراع في آن واحد.

منذ سقوط النظام السابق عام 2003، أصبح العراق ساحة مفتوحة لتنافس القوى الكبرى؛ فالولايات المتحدة من جهة وإيران من جهة أخرى، إضافة إلى حضور إقليمي متنوع من تركيا ودول الخليج. هذا التنافس جعل العراق في كثير من الأحيان يبدو وكأنه ساحة لتصفية الحسابات، لكنه في الوقت نفسه منح بغداد فرصة لإعادة تعريف نفسها كلاعب إقليمي قادر على الموازنة بين هذه القوى. ومع تصاعد التوترات في المنطقة، خصوصاً بين واشنطن وطهران، أصبح العراق مطالباً بأن يحدد موقعه بوضوح أكبر، وأن يختار بين أن يكون مجرد ساحة نفوذ أو أن يتحول إلى محور توازن.

السياسة العراقية في السنوات الأخيرة اتجهت نحو محاولة تثبيت مفهوم السيادة الوطنية، وهو مفهوم تعرض للاهتزاز بفعل التدخلات الخارجية والوجود العسكري الأجنبي. فالانسحاب الأميركي من العراق الذي جاء نتيجة ضغوط داخلية وخارجية أعاد طرح سؤال جوهري: هل يستطيع العراق أن يحافظ على استقلال قراره السياسي والأمني في ظل استمرار النفوذ الإيراني وتزايد الضغوط الأمريكية؟ هذا السؤال يعكس جوهر موقع العراق في الصراع الدائر، فهو ليس مجرد طرف متأثر، بل طرف فاعل يسعى إلى صياغة معادلة جديدة تضمن له دوراً مستقلاً.

بين أن يكون ساحة لتصفية الحسابات أو جسراً للحوار يواجه العراق تحدياً تاريخياً يتطلب تعزيز السيادة الوطنية وبناء مؤسسات قوية لمواجهة الضغوط الخارجية

في البعد الإقليمي، يحاول العراق أن يقدم نفسه كجسر بين القوى المتصارعة، فهو يدرك أن موقعه الجغرافي يجعله حلقة وصل بين الخليج وإيران، وبين الشام وتركيا، وبين الشرق والغرب. هذا الدور الوسيط يمنحه فرصة ليكون ساحة للحوار بدلاً من أن يكون ساحة للحرب. وقد شهدنا في السنوات الأخيرة محاولات عراقية لاستضافة جولات تفاوض بين أطراف إقليمية متنازعة، في محاولة لإعادة بغداد إلى موقعها التاريخي كعاصمة للحوار والتوازن.

العراق يقف اليوم في قلب صراع إقليمي معقد بين النفوذ الإيراني والضغوط الأميركية محاولاً صياغة دور مستقل يعكس تطلعاته الوطنية ويوازن المصالح

لكن هذا الدور الوسيط لا يخلو من تحديات؛ فالعراق يواجه ضغوطاً داخلية من قوى سياسية وفصائل مسلحة بعضها مرتبط بالخارج، ما يجعل القرار الوطني عرضة للتجاذبات. كما أن الوضع الاقتصادي الهش يزيد من صعوبة الحفاظ على استقلالية القرار، إذ يحتاج العراق إلى دعم خارجي في مجالات الطاقة والاستثمار، وهو ما يفتح الباب أمام نفوذ القوى الإقليمية والدولية. بالمقابل، هناك إدراك متزايد داخل العراق بأن استمرار الارتهان للخارج سيبقيه في موقع التابع، ولذلك نرى محاولات لتعزيز التعاون العربي-العربي، والانفتاح على دول الخليج ومصر والأردن، إلى جانب الحفاظ على علاقات متوازنة مع إيران وتركيا. هذه السياسة تهدف إلى تنويع الشركاء وتقليل الاعتماد على طرف واحد، وهو ما يعكس رغبة العراق في أن يكون لاعباً مستقلاً لا مجرد تابع لإحدى القوى.

الصراع الدائر في المنطقة، سواء كان في سوريا أو اليمن أو الخليج، يضع العراق أمام تحدٍ مزدوج: فمن جهة عليه أن يحمي نفسه من الانجرار إلى هذه الصراعات، ومن جهة أخرى عليه أن يستثمر موقعه ليكون جزءاً من الحل. هذا التحدي يتطلب قيادة سياسية قادرة على الموازنة بين الداخل والخارج، وعلى تقديم رؤية وطنية تتجاوز الانقسامات الطائفية والعرقية التي طالما استُخدمت كأداة للتدخل الخارجي.

موقع العراق في الصراع الدائر في المنطقة هو موقع مركب ومعقد، يجمع بين كونه ساحة نفوذ وصراع وبين كونه لاعباً يسعى إلى صياغة دور مستقل. والعراق اليوم يقف أمام فرصة تاريخية: إما أن يستمر في أن يكون ساحة لتصفية الحسابات، وإما أن يتحول إلى محور توازن إقليمي قادر على إعادة تعريف معادلة القوة في المنطقة. هذه الفرصة لن تتحقق إلا إذا استطاع العراق أن يعزز مفهوم السيادة الوطنية، وأن يبني مؤسسات قوية قادرة على مواجهة الضغوط الخارجية، وأن يقدم نفسه كجسر للحوار بدلاً من أن يكون ساحة للحرب. وبهذا المعنى، فإن موقع العراق في الصراع ليس قدراً محتوماً، بل هو خيار سياسي واستراتيجي يمكن أن يعيد رسم ملامح المنطقة بأكملها.

ساحة عبادة أم ساحة تصفية حسابات؟

دروس الدبلوماسية في زمن الأزمات

صلاح الهوني
إعلامي ليبي

تأجيل اجتماع مسقط جزءٍ من القصة لا نهايتها

إرجاء الاجتماع الإقليمي الذي كان مقرراً في سلطنة عُمان بين إيران وعدد من دول الخليج لا ينبغي أن يُقرأ باعتباره نهاية لمسار سياسي، بل اختباراً جديداً له. فقد أعلنت مسقط أن التأجيل جاء حرصاً على تحقيق التوافق وتهيئة الظروف الملائمة لحوار بناء، في وقت كانت فيه المنطقة تشهد تصعيداً عسكرياً وهجمات جديدة على منشآت ومسارات حيوية للطاقة.

ولعل المفارقة الأكثر دلالة أن هذا التعثر الدبلوماسي جاء في اللحظة التي أصبحت فيها الحاجة إلى الدبلوماسية أكثر إلحاحاً. فالهجمات التي استهدفت خط أنابيب "شرق - غرب" السعودي، والذي يمثل أحد أهم البدائل لنقل النفط بعيداً عن مضيق هرمز، أضافت بعداً جديداً إلى أزمة الطاقة الإقليمية والعالمية، فيما تزامنت معها هجمات أخرى على الملاحة في المنطقة. وقد أدى توقف الخط السعودي إلى ارتفاع المخاوف من اتساع اضطراب الإمدادات النفطية العالمية، في وقت تجاوز فيه سعر برنت حاجز المائة دولار للبرميل.

هنا تحديداً تبدو السعودية في المشهد بصورة مختلفة عن القراءة السريعة التي قد تختزل السياسة في المواقف العلنية. فالرياض ليست دولة تراقب أزمة هرمز من بعيد، ولا طرفاً يمكنه التعامل معها باعتبارها مشكلة تخص الآخرين. أمن الملاحة والطاقة بالنسبة إلى السعودية جزء من أمنها الوطني والاقتصادي، وأي اضطراب طويل في الخليج أو البحر الأحمر أو طرق تصدير النفط يطال مصالحها مباشرة. ومع ذلك، فإن الرد على الخطر لا يعني بالضرورة التخلي عن السياسة. وربما يكون العكس هو الصحيح: كلما ارتفعت كلفة المواجهة، ازدادت قيمة القدرة على إبقاء قنوات الاتصال مفتوحة.

أعظم علامات القوة أن تملك الدولة القدرة على حماية مصالحها وإبقاء الطريق مفتوحاً نحو التسوية. تلك هي الدبلوماسية حين تصبح جزءاً من القوة لا بديلاً عنها

وهذه هي الرسالة الأهم التي يمكن استخلاصها من الموقف السعودي في هذه اللحظة: القوة والدبلوماسية ليستا نقيضين.

لقد تغيرت المنطقة كثيراً خلال السنوات الأخيرة. لم تعد السياسة الخليجية تتحرك ضمن ثنائيات جامدة من نوع التحالف أو الخصومة، والحرب أو السلام، والانفتاح أو القطيعة. الدول التي تريد حماية مصالحها في عالم شديد التقلب تحتاج إلى مساحة أوسع للحركة، وإلى أكثر من قناة للاتصال، وإلى القدرة على الجمع بين الردع والحوار في الوقت نفسه.

الرياض، وهي تواجه تهديدات مباشرة لمصالحها ومنشآتها ومسارات صادراتها، لا تغلق الباب أمام إمكانية التفاهم الإقليمي. إنها تقول، بصورة عملية، إن حماية الأمن لا تعني أن تصبح الحرب هي اللغة الوحيدة الممكنة.

وليس في ذلك أي تنازل عن المصالح السعودية أو عن حق المملكة في حماية أراضيها ومنشآتها. على العكس، فإن الدولة التي تملك القدرة على الدفاع عن مصالحها تكون أكثر قدرة على التفاوض من موقع الثقة. والحوار لا يصبح ذا قيمة عندما تتخلى الدولة عن قوتها، وإنما عندما تستخدم قوتها لكي تمنح الدبلوماسية فرصة للعمل.

هذه إحدى أهم التحولات التي يمكن رصدها في التفكير السعودي خلال السنوات الأخيرة: الانتقال من مفهوم التحالفات الصلبة وحدها إلى مفهوم أوسع يقوم على تعدد الشراكات وتنوع الخيارات. فالرياض ترتبط بعلاقة إستراتيجية عميقة مع الولايات المتحدة، لكنها في الوقت نفسه طورت علاقاتها مع الصين، وعززت حضورها في محيطها الخليجي والعربي، وانفتحت على مسارات إقليمية كانت تبدو قبل سنوات شديدة الصعوبة، بما في ذلك استعادة العلاقات مع إيران عبر المسار الصيني.

العالم لم يعد يسمح للدول الكبرى والمتوسطة بأن تضع كل رهاناتها في اتجاه واحد. التحولات في الاقتصاد العالمي، والصراع على النفوذ، والتنافس بين القوى الكبرى، وتبدل أولويات واشنطن، وصعود الصين، والاضطرابات المتكررة في أسواق الطاقة، كلها جعلت تنويع العلاقات جزءاً من مفهوم الأمن نفسه.

ومن هنا يمكن فهم العلاقة السعودية - العُمانية بصورة أعمق. فعُمان ليست مجرد دولة تستضيف اجتماعاً تعذر انعقاده، وإنما هي أحد أهم الجسور الدبلوماسية التي بقيت مفتوحة في المنطقة عندما أغلقت قنوات أخرى.

وليس مصادفة أن يكون اللقاء الذي جمع ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان والسلطان هيثم بن طارق في جدة في الأول من سبتمبر قد تناول، إلى جانب العلاقات الثنائية، التطورات الإقليمية والجهود الرامية إلى الحفاظ على الأمن والاستقرار. وهذا التقارب بين الرياض ومسقط يمنح المسار العُماني وزناً خليجياً مهماً، حتى عندما تواجه المبادرات السياسية عراقيل أو خلافات.

وفي هذا السياق، يصبح تأجيل اجتماع مسقط نفسه جزءاً من القصة، لا نهايتها.

فالدبلوماسية الجادة ليست مسرحاً تُقاس نجاحاته بعدد الصور الجماعية. إنها عملية طويلة ومعقدة، تقوم أحياناً على تأجيل اجتماع حتى تتوافر شروط أفضل، أو إعادة صياغة مقترح، أو البحث عن صيغة تستطيع الأطراف قبولها. وقد يكون الإصرار على عقد اجتماع في لحظة لا تتوافر فيها الحدود الدنيا للتوافق أكثر ضرراً من تأجيله.

مسقط فهمت ذلك عندما أعلنت أن التأجيل جاء "حرصاً على التوافق". وهذه العبارة، رغم بساطتها، تحمل معنى دبلوماسياً مهماً: أن الهدف ليس عقد الاجتماع لمجرد عقده، وإنما خلق الظروف التي يمكن أن تجعل الحوار منتجاً.

وهنا يمكن أن نرى جانباً آخر من الحضور السعودي في المشهد. فالرياض لا تحتاج إلى اتفاق سريع إذا كان الاتفاق غير قابل للاستمرار. ما تحتاجه هو ترتيبات قابلة للتنفيذ تحمي الملاحة، وتضمن احترام السيادة، وتمنع استخدام الممرات الدولية أدوات للضغط السياسي والعسكري.

إن مضيق هرمز ليس مجرد ممر مائي. إنه واحد من الشرايين التي يمر عبرها جزء حاسم من الاقتصاد العالمي. ولذلك فإن أي ترتيبات بشأنه لا يمكن أن تكون مسألة ثنائية بين إيران وعُمان، ولا قضية خليجية داخلية فحسب. إنها قضية تتعلق بأمن الطاقة العالمي، وبالاقتصاد الدولي، وباستقرار الأسواق.

والهجمات الأخيرة على خط "شرق - غرب" السعودي كشفت بدورها حقيقة أكثر خطورة: حتى البدائل البرية التي أُنشئت لتقليل الاعتماد على هرمز ليست بمنأى عن تداعيات الصراع الإقليمي. فالخط السعودي الذي ينقل النفط من المنطقة الشرقية إلى ساحل البحر الأحمر صُمم، من بين أهداف أخرى، لتوفير مسار يتجاوز هرمز، لكن استهدافه أظهر أن الجغرافيا الاستراتيجية للمنطقة أصبحت مترابطة إلى درجة تجعل استقرار ممر واحد غير كاف لحماية منظومة الطاقة بأكملها.

وهنا تتغير طبيعة السؤال.

لم يعد السؤال فقط: كيف نفتح هرمز؟ بل أصبح: كيف نبني نظاماً إقليمياً لا يسمح بتحول هرمز وباب المندب وخطوط الأنابيب والمنشآت النفطية والموانئ إلى سلسلة واحدة من نقاط الاختناق؟

وهذا سؤال سياسي قبل أن يكون عسكرياً.

لذلك فإن السعودية، بحضورها في هذا المسار، تستطيع أن تدفع باتجاه مفهوم أوسع للأمن الخليجي، لا يقوم فقط على حماية السفن والمنشآت، وإنما على بناء قواعد للسلوك الإقليمي، واحترام السيادة، وضمان حرية الملاحة، وإنشاء قنوات اتصال تمنع الحوادث من التحول إلى حروب، وتطوير ترتيبات إقليمية تجعل أمن الطاقة مصلحة مشتركة لا ورقة للمساومة.

وهذا هو الدرس الأكثر أهمية في تجربة الرياض: القوة ليست فقط القدرة على الرد، وإنما القدرة على منع الحاجة إلى الرد عندما يكون ذلك ممكناً.

الدولة القوية لا تحتاج إلى إثبات قوتها في كل لحظة. وهي لا تعتبر الحوار تنازلاً، ولا المرونة ضعفاً، ولا التواصل مع الخصم خروجاً من دائرة التحالفات. إنها تعرف أن السياسة الدولية لا تُدار بالمشاعر، وإنما بحساب المصالح والمخاطر والفرص.

في هذه النقطة تحديداً يمكن فهم ما تقوم به السعودية اليوم باعتباره جزءاً من تحول أوسع في مفهوم قوتها. فالمملكة لم تعد تقدم نفسها فقط بوصفها قوة نفطية أو دولة ذات وزن ديني وجيوسياسي، وإنما بوصفها مركزاً اقتصادياً وسياسياً يسعى إلى إعادة تعريف موقعه في النظام الدولي. ومشروع "رؤية 2030" نفسه يحتاج إلى بيئة إقليمية مستقرة، وإلى طرق تجارة آمنة، وإلى تدفق الاستثمارات، وإلى علاقات واسعة مع مختلف القوى العالمية.

ولهذا فإن الاستقرار بالنسبة إلى السعودية ليس شعاراً دبلوماسياً. إنه شرط اقتصادي لمشروع التحول الوطني نفسه.

وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن الدبلوماسية تصبح جزءاً من التنمية، والحوار يصبح جزءاً من الأمن الاقتصادي، والتهدئة تصبح أحياناً استثماراً استراتيجياً لا موقفاً عاطفياً.

من هنا أيضاً تأتي أهمية عدم قراءة تأجيل اجتماع مسقط بوصفه انتصاراً لخط التصعيد أو هزيمة لخط الحوار. المنطقة أكثر تعقيداً من ذلك. فالخلافات حقيقية، والمخاوف الخليجية حقيقية، والتهديدات الأمنية حقيقية، لكن الحاجة إلى التفاوض حقيقية أيضاً. ولهذا فإن إرجاء الاجتماع قد يكون مجرد محطة صعبة في مسار أطول، لا إعلاناً عن سقوط فكرة الحوار.

بل ربما يكون الدرس الأهم هو أن الدبلوماسية الحقيقية تبدأ عندما يصبح الحوار صعباً.

وهنا يمكن للسعودية وعُمان أن تؤديا دوراً مهماً معاً، كل من موقعه. عُمان تمتلك خبرة الوساطة والقنوات المفتوحة، والسعودية تمتلك الوزن السياسي والاقتصادي والأمني الذي يجعل أي ترتيبات خليجية ذات معنى أوسع. وإذا التقت الخبرة الدبلوماسية العُمانية بالثقل السعودي، فقد تنشأ مساحة جديدة للتعامل مع الأزمة، حتى لو احتاج الأمر إلى وقت أطول.

المطلوب ليس تسوية شكلية، وإنما بناء أرضية يمكن أن تستمر.

الدرس الأكثر أهمية في تجربة الرياض: القوة ليست فقط القدرة على الرد وإنما القدرة على منع الحاجة إلى الرد عندما يكون ذلك ممكناً

فلا يمكن لأمن الخليج أن يبقى رهينة لتقلبات الحرب. ولا يمكن للاقتصاد العالمي أن يظل يدفع ثمن كل أزمة سياسية في المنطقة. ولا يمكن أن تتحول المضائق الدولية إلى أوراق تفاوض دائمة. وفي المقابل، لا يمكن بناء الاستقرار عبر تجاهل مخاوف الدول أو القفز فوق قضايا السيادة والأمن.

الحل، كما توحي التجربة السعودية في هذه المرحلة، يقع في المنطقة الوسطى الصعبة: قوة تحمي، ودبلوماسية تتحدث، وتحالفات متعددة، ومصالح واضحة، واستعداد دائم للعودة إلى الطاولة.

وهذه ليست دبلوماسية مثالية تبحث عن عالم بلا خلافات، وإنما دبلوماسية واقعية تبحث عن طريقة لمنع الخلافات من تدمير مصالح الجميع.

قد لا يكون اجتماع مسقط قد انعقد في موعده. وقد لا تكون الأزمة قد اقتربت من نهايتها. وقد تحتاج الأطراف إلى مزيد من الوقت لكي تجد صيغة مقبولة بشأن الملاحة في هرمز. لكن قيمة المسار لا تختفي بالتأجيل. فالاجتماع الذي يتأجل يمكن أن ينعقد لاحقاً، أما القطيعة الكاملة فهي التي تجعل العودة إلى الحوار أكثر صعوبة.

لكن ما دام هناك من يصر على إبقاء باب الحوار مفتوحاً، فإن السياسة لم تقل كلمتها الأخيرة.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس التحرير
محمد أحمد الهوني

المدير العام
صلاح أحمد الهوني

مدير التحرير
مختار الدبابي

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk

العرب
الثلاثاء 2026/09/15
السنة 49 العدد 13914

نجيب محفوظ شاعر الدنيا الحديثة وعناد الثيران

سعد القرش يعيد اكتشاف محفوظ بوصفه ظاهرة فنية وفلسفية شاملة

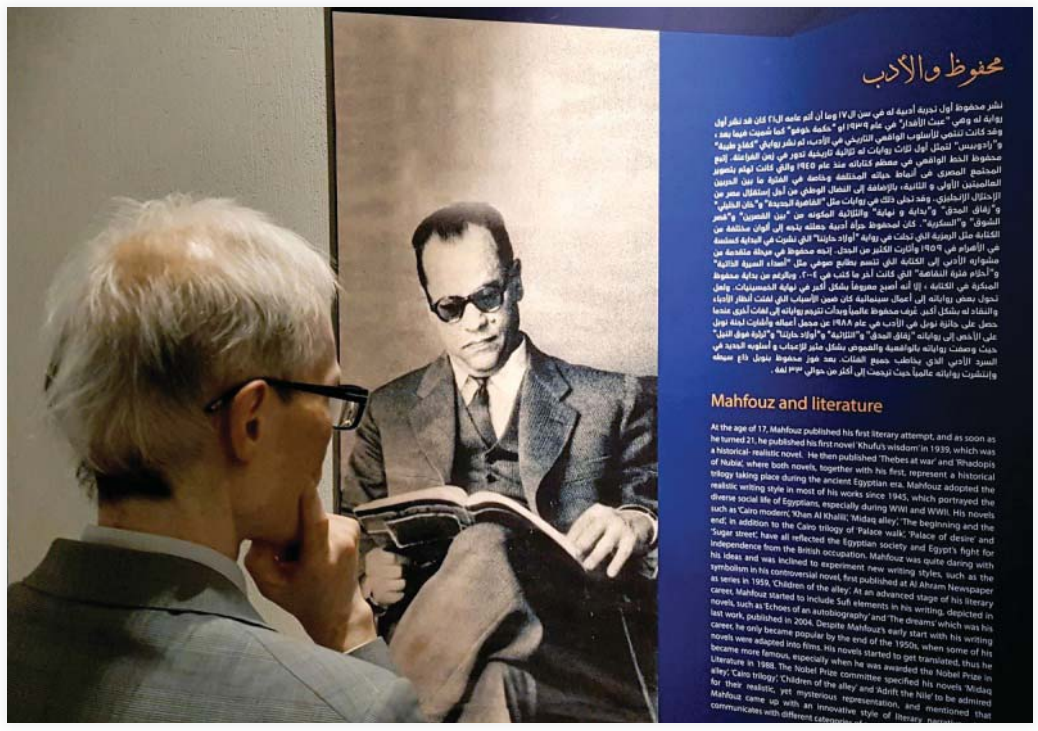

الذكاء المحفوظي حدد ساحة معركته

ظل نجيب محفوظ واحدًا من أكثر الأسماء حضورًا في الأدب العربي، لكن مسيرته لم تكن طريقًا ممهدًا نحو المجد، بل رحلة طويلة من الصمت النقدي والمثابرة وتطوير أدوات الكتابة. في كتابه الجديد، يعود سعد القرش إلى هذه التجربة، محاولًا تفكيك أسرار انتقال محفوظ من الموهبة إلى العبقرية، ومن الرواية إلى أفق الشعر والفلسفة.

د. سمير محمود
كاتب وصحافي مصري

محفوظ واحد من أبرز ضحايا لغة لم ينتبه العالم إلى ثراء وجهها الإبداعي إلا في الآونة الأخيرة. ولو أنه كتب الثلاثية بالإنجليزية أو الفرنسية لنال جائزة نوبل قبل ثلاثين عامًا من حصوله عليها.

هو أيوب الأدب، الصابر على مكاره الصمت النقدي الطويل في البدايات. صمت لم يمزقه فوز الرجل بجائزة قوت القلوب الدمرداشية عن رواية «رادوبيس» عام 1943، ثم فوزه بجائزة مجمع اللغة العربية عن رواية «خان الخليلي» عام 1946.

أعمال محفوظ لا تزال تحتفظ بقدرتها على مخاطبة القارئ العام والدارس المتخصص معًا. لعله الكاتب العربي الأكثر حضورًا في وسائل التواصل الاجتماعي، من خلال تداول عباراته الدالة، أو تلك التي أنطق بها أبطال أعماله، وتحولت إلى مأثورات.

بوفاة محفوظ، في 30 أغسطس 2006، اكتملت الدائرة، وسقط اللغط حول أرائه، وهدأت أضواء نوبل، وقل الطلب على بضاعة غير الموهوبين من مريدين طال بهم العهد في استثمار الجائزة وصاحبها. بقيت أعمال محفوظ، وقد منحته مكانًا بجوار فلاسفة ومبدعين في تاريخ الإنسانية تسري مقولاتهم عابرة للأجيال واللغات، من سقراط «تكلم حتى أراك»، إلى المتنبي والمعري وشكسبير وكازانتزاكيس، وسارتر، ومحفوظ حتى لو كانت «آفة حارتنا النسيان».

المنجز الإبداعي المحفوظي، 55 عملًا، وتضاف إليها ترجمة محفوظ لكتاب «مصر القديمة» لجيمس بيكي، وقد تأخر النقاد المصريون في الانتباه إليه. وتأخر المترجمون أيضًا، ثم اكتشفوا كنزًا.

بهذه الخلاصات والجمل الحاسمة التي لا تحمل إلا معنى واحدًا هو التفرد والعبقرية، صدّر الكاتب الروائي المصري سعد القرش كتابه الجديد "شاعر الدنيا الحديثة.. نجيب محفوظ من الموهبة إلى العبقرية"، الصادر عن الهيئة العامة للكتاب، وفيه يعيد القرش اكتشاف محفوظ بوصفه ظاهرة فنية وفلسفية شاملة، تتجاوز حدود السرد والموهبة إلى آفاق العبقرية الفذة.

الفكرة المركزية في هذا الكتاب البديع تدور حول الرواية التي شهدت تحولات كبرى في الفن والدراما والفلسفة، وأبرز تحول هو العناية الفائقة بالتفاصيل، بعد أن كانت الكليات هي الأساس، وهذا ناتج عن التطور العلمي، وقد تفاعل محفوظ مع هذه النقلات بموهبة فذة تصل إلى حد العبقرية، فجعل الرواية سيدة الفنون في كل وقت أقرب ما تكون إلى الشعر بل هي شعر الدنيا الحديثة، وشاعرها هو نجيب محفوظ.

تجلى ذلك في افتتاحيات وخواتيم رواياته التي تتمتع بنفس شعري خاطف ومدهش، في وقوفها على جوهر الحياة والتجربة الإنسانية، يظهر ذلك في أغلب أعماله ومنها: «اللص والكلاب» و«الحرافيش»، وفيها دراما الشعر وعمق الفلسفة وروعة العبقرية والإبداع في النظرة المحفوظية الخاصة للعالم.

يؤكد القرش أن محفوظ لم يقدم معلومات توثق أو تثري المعرفة بالشارع والحارة والمجتمع في فترة زمنية ما، بقدر ما قدم للعالم إبداعًا إنسانيًا فريدًا يتطلب مستوى مختلفًا من التلقي من القراء أو النقاد، وأن ترتيب الأعمال، حسب التواريخ الأولى لنشرها، يضع القارئ والباحث أمام التطور الفني للكاتب، بدءًا بإيمانه بإعادة كتابة تاريخ مصر القديمة روائيًا (عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة)، مرورًا بنزعة الوعظ الأخلاقي في «زقاق المدق»، وصولًا إلى النضج الواثق في الثلاثية.

عناد الثيران

يقول المؤلف إن محفوظ امتلك «عناد الثيران»، على حد وصفه لنفسه، فاستطاع مقاومة التجاهل النقدي طوال خمس عشرة سنة، في بداية مشواره. وبالدأب على تطوير أدواته وتعميق رؤاه الفنية، بدد ما ينتظره مستشرق من كاتب يقيم خارج المركز. امتلك سلاح الندية، واستجاب لنداء شغفه المعرفي، وقلقه الوجودي، فطرح أسئلة إنسانية، وترك للقارئ حق السعي إلى الإجابة عنها.

لم يتاجر محفوظ بمنع رواية «أولاد حارتنا»، ولا سعى لدى «المستشرقين» إلى التشهير بالسلطة الدينية. تأكد له أن من يريد قراءة الرواية سيبحث عنها، ويصل إليها. أدرك أن موهبته أعزُّ عليه من تبديد بعض منها في حروب يتمناها غيره، ويفتعلها، طلبًا لشهرة لا تنقص محفوظ. الذكاء المحفوظي حدد ساحة معركته، الفن وحده، وكيف يتجاوز ما حققه من قفزات. ذلك الذكاء أنقذه كثيرًا.

كان الرجل عبقريًا في الوعي بقدراته، وإدراكه أن الموهبة وحدها لا تكفي أن يكون المبدع عظيمًا، وإنما يلزمها دأب متواصل، فهم عميق لقانون لحظة تاريخية يريد الكتابة عنها، الأدق أنه يريد الكتابة «فيها». فالكاتب الحق لا يكتب إلا حين يفهم قانون اللحظة، حيث تكون الكتابة ضرورة، والصمت لا يجدي. الصدق مع النفس، صمتًا أو كتابة، درسٌ محفوظيٌّ لا يعيه الذين لا يجدون الشجاعة على التوقف عن الكتابة في الوقت المناسب. هدنة للاستيعاب، أو اعتزال نهائي إذا لم تكن لديهم إضافة نوعية.

الشعر مقابل الرواية

يشير سعد القرش إلى أن محفوظ بدأ تأسيس الرواية، في سياق ثقافي ينتصر للشعر. في كتابه «في بيتي» (1945) استهان «الكاتب الجبار» عباس محمود العقاد بفن القصة. قال إن الراوية قد تكون «أخصب قريحة، وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ، ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر، ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور، والمثل هنا أقرب إلى الإيضاح من سوق القضية بغير تمثيل: إن الحديقة التي تنبت التفاح لا يلزم أن تكون في خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التي تنبت الجميز أو الكراث، ولكن الجميز والكراث لا يفضلان التفاح، وإن نبتا في أرض أخصب من الأرض التي تنبته وتزكيه».

قال العقاد إن خمسين صفحة من القصة لا تعطي «المحصول» الذي يعطيه بيت كهذا: وتلفتت عيني فمذ بعدتْ/ عني الطلول تلفت القلبُ. في رأي العقاد أن الرواية تشبه قرن الخَرُّوب: «قنطار خشب ودرهم حلاوة!».

في استعلاء العقاد على الفن الجديد طبقية ثقافية، فالشعر يليق بذوق النخبة من المثقفين، لكن «شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها القصة التي تفهمها الدهماء».

ردّ نجيب محفوظ على العقاد، في مقال عنوانه «القصة عند العقاد»، في مجلة «الرسالة» في الثالث من سبتمبر 1945. هكذا بدأ الروائي الشاب مقاله: «الفن - أيًّا كان لونه وأيًّا كانت أداته - تعبير عن الحياة الإنسانية، فهدفه واحد وإن اختلفت كيفية التعبير تبعًا لاختلاف الأداة، وكل فن في ميدانه السيد الذي لا يبارى... فالفنون جميعًا تتفق في الغاية وتتساوى في السيادة كلٌ بحسب مجاله، وهي في مجموعها تكون دنيا الأفراح والمسرات والحرية».

القصة عند محفوظ لا ترمي إلى مغزى يمكن تلخيصه في بيت من الشعر، بل إن صفحة من قصة قد تحتاج إلى العشرات من أبيات الشعر، للإحاطة بدقائقها وجمالها. أرجع محفوظ رؤية العقاد لفن القصة إلى الكراهية أو الحقد، «فحكم العقاد على القصة حكم مزاج وهوى لا حكم نقد وفلسفة». في رأي محفوظ أن «الإبداع الفني لا يتمثل في عمل أدبي كما يتمثل في أدب القصة».

لماذا رأى القرش محفوظ شاعرا؟

من يقرأ أعمال محفوظ يظنه شاعرًا. افتتاحيات وخواتيم أعماله قبسٌ شعري. لغة شفيفة، حالة درامية ترتقي بالموقف إلى جوهر الشعر. تأملات جعفر الراوي، مثلا، في «قلب الليل»، وبدايات «اللص والكلاب» و«الحرافيش» المكتنزة بالشعر، ومنه أهازيج وتسابيح يترنم بها الدراويش في التكية.

بنظرة بانورامية يضع الكتاب محفوظ في مصاف عبقريات كل من شكسبير ودوستويفسكي وتشيخوف وكازانتزاكيس وماركيز

محفوظ لا يكتب حكايات. جاء من حقل الفلسفة يحمل أفكارًا يبحث لها عن أردية فنية. في وقت مناسب أنصفته جائزة نوبل. أنقذته شخصيًا، وأعادت الاعتبار إلى أعماله. كما صارت لمن استعلوا عليه، قبل سنوات، مشروعًا استثماريًا. تحدثوا باسم الرجل، ونسبوا إليه آراء، وأصدروا عنه الكتب.

إعادة اكتشاف العبقري

عكف سعد القرش على قراءة الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ، ويا له من صبر أيوب حين قارن بين طبعات هذه الأعمال الصادرة عن دار الشروق بطبعات أخرى لناشرين آخرين، مكتشفًا فيها بعض الفوارق والأخطاء اللغوية التي جعلته يترحم على سعيد جودة السحار، الكتبي العظيم، أول محرر أدبي مصري محترف.

محفوظ تجاوز حدود السرد والموهبة

إيلين مختفي.. أميركية جعلت من الجزائر وطنًا للثورة والذاكرة

محمد عبيدو
ناقد سينمائي جزائري

رحلت المناضلة الأميركية المناهضة للاستعمار إيلين مختفي (1928–2026) عن عمر ناهز 98 عامًا، بعد مسيرة استثنائية ارتبطت على مدى عقود بالقضية الجزائرية وبحركات التحرر في العالم. لم تكن حياتها مجرد سيرة مناضلة أميركية انحازت إلى قضية استقلال الجزائر، بل رحلة طويلة بحثًا عن معنى العدالة والحرية والانتماء.

نشأت في نيويورك، وعاشت منذ طفولتها تجربة التمييز، قبل أن تقودها قناعاتها السياسية والإنسانية إلى باريس، ثم إلى قلب الثورة الجزائرية، لتستقر بعد الاستقلال في الجزائر العاصمة، حيث وجدت نفسها في مركز عالم ثوري كان يتشكل من جديد.

الاستعمار والعنصرية

ولدت إيلين كلاين في نيويورك سنة 1928، في عائلة يهودية علمانية من الطبقة العاملة. تركت تجربة معاداة السامية التي عاشتها في طفولتها أثرًا عميقًا في وعيها، كما أسهم موقف والدتها المناهض للعنصرية في تكوين شخصيتها. وفي السادسة عشرة من عمرها التحقت بكلية ويسليان في جورجيا، لكنها اصطدمت بواقع الفصل العنصري وتمردت عليه، فغادرت المؤسسة بعد عام واحد.

عادت إلى نيويورك، ودرست اللغات، وانخرطت في النشاطات المناهضة للحرب والعنصرية. وفي سنة 1951، وهي في الثالثة والعشرين، توجهت إلى باريس، التي لم تكن بالنسبة إليها مجرد محطة أوروبية، بل بوابة إلى عالم سياسي وفكري جديد. وهناك ستكتشف التناقض بين خطاب الحرية والمساواة من جهة، والممارسات الاستعمارية من جهة أخرى.

كان عام 1952 نقطة تحول حاسمة في حياتها. خلال مشاركتها في مظاهرة عيد العمال في باريس، شاهدت العمال الجزائريين وهم يحاولون الانضمام إلى المسيرة، ولاحظت مظاهر التمييز التي تعرضوا لها. ربطت بين ما رأته في فرنسا وما عرفته من التمييز ضد الأميركيين الأفارقة في الولايات المتحدة، فتحولت القضية الجزائرية في وعيها إلى جزء من قضية أوسع تتصل بالاستعمار والعنصرية والاضطهاد.

ومن خلال عملها مترجمة واحتكاكها بالأوساط الدولية المناهضة للاستعمار، اتسعت دائرة علاقاتها بالحركات التحررية. وفي مؤتمر الشعوب الأفريقية بأكرا سنة 1958، التقت فرانز فانون ومحمد سحنون، وكان اللقاء نقطة انتقال من التعاطف إلى الالتزام المباشر بالقضية الجزائرية. انضمت إلى سحنون في نيويورك، وعملت في مكتب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وجبهة التحرير الوطني، وساهمت في التعريف بالقضية الجزائرية على المستوى الدولي.

ولم يكن فانون بالنسبة إلى مختفي مجرد شخصية سياسية التقتها في سياق الثورة، بل كان أحد الأشخاص الذين تركوا أثرًا عميقًا في رؤيتها للعالم. واصلت الاتصال به عندما كان يعالج من مرضه في الولايات المتحدة، وساعدت عائلته واهتمت بابنه أوليفييه. لذلك أصبحت علاقتها بفانون جزءًا من ذاكرتها الشخصية والسياسية، وهي العلاقة التي ستعود إليها لاحقًا في كتابها، لا باعتبارها مادة تاريخية مجردة، وإنما باعتبارها تجربة إنسانية عاشتها عن قرب.

تأثير فانون

بعد استقلال الجزائر سنة 1962، اختارت إيلين مختفي أن تأتي إلى البلد الذي ناضلت من أجل استقلاله. أقامت في الجزائر العاصمة اثنتي عشرة سنة، وعملت صحفية ومترجمة في وكالة الأنباء الجزائرية، كما شاركت في الحياة الثقافية والسياسية للجمهورية الجديدة. وكان موقعها يسمح لها بمراقبة مرحلة تأسيس الدولة الجزائرية من الداخل، والتفاعل مع الشخصيات الوطنية والثورية التي صنعت تاريخها الحديث.

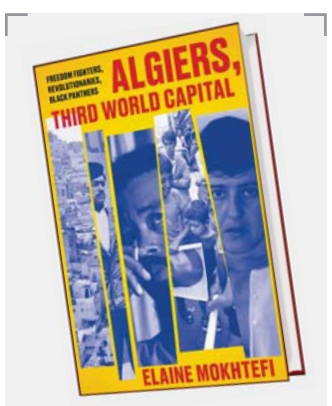

إيلين مختفي بعد حياة امتدت قرابة قرن، تركت وراءها سيرة يصعب فصلها عن تاريخ النضالات المناهضة للاستعمار والعنصرية

في الجزائر لم تعد القضية بالنسبة إليها قضية خارجية، بل أصبحت جزءًا من حياتها اليومية. التقت خلال تلك المرحلة شخصيات عالمية بارزة، كما شاركت في تنظيم المهرجان الثقافي الإفريقي الأول في الجزائر سنة 1969، وهو حدث جسّد صورة الجزائر باعتبارها فضاءً للثورات والتحرر والتضامن بين شعوب العالم الثالث.

وكان من أبرز وجوه تلك المرحلة حضور حركة الفهود السود الأميركية في الجزائر، خصوصًا بعد وصول إلدريدج كليفر إلى العاصمة. ساعدت مختفي في ترتيب وجود الحركة وإقامة مكتبها الدولي، لتصبح الجزائر نقطة اتصال بين النضال الأسود في الولايات المتحدة والحركات المناهضة للاستعمار في إفريقيا وآسيا والعالم العربي.

هنا تتضح أهمية تجربتها؛ فقد عاشت في الجزائر لحظة تاريخية تحولت فيها العاصمة إلى ما وصفته في كتابها بـ«عاصمة العالم الثالث».

شاهدة على الثورة وعلى الإنسان